رحلة الى مصر

في عهد محمد علي باشا الكبير

تأليف

الدكتور ورنر هوفيستر

نقلها من الانجليزية الى العربية

محمد رضا

رئيس قسم الفهارس بمكتبة جامعة فؤاد الاول

طبع بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٩٤٧

مقدمة

رحل الدكتور ورنر هوفميستر الألماني إلى سيلان والهند في معية برنس أوف بروسيا. وقد أبحر مع الأمير من مدينة تريستة في ١٦ سبتمبر سنة ١٨٤٤، ومرّ في طريقه بالاسكندرية ثم سافر الى القاهرة فوصف ما شاهده وصف أجنبي مار بالبلاد. إلاّ أن عين الأجنبي ترى أكثر. وكان ذلك في عهد المغفور له محمد علي باشا الكبير.

وقد حثني أحد الأصدقاء الأعزاء على ترجمة هذا الجزء من الرحلة لما فيه من وصف لذلك العهد الذي مضى عليه أكثر من مئة عام. وأغلبنا لا يعلم الحالة الاجتماعية وقتئذٍ في مصر. فلبيت طلبه على ضيق وقتي. وقد وجدت أن وصف المؤلف، هو عبارة عن نظرة سطحية إجمالية لكنها مع ذلك تبين حالة مصر في ذلك الزمن وما حدث بها من رقي وتطور عظيم في أكثر النواحي وما لا يزال على حاله إلى الآن بالرغم من انقضاء قرن من الزمان.

أول يونيو سنة ١٩١٧ — محمد رضا

لما دنت السفينة من شاطىء الاسكندرية ، شاهدنا عدّة بروج أو ما شاكلها . وظهرت مسلة كليوباترة وعمود السواري . وكان الشاطىء ، لسوء الحظ ، منخفضاً ، فلم يكن لجميع هذه المناظر غير أثر ضعيف في نفوسنا . ثم أبصرنا منظراً خلفناه وراءنا ، منظر الأسطول المصري الراسي هنا . وقد بلغنا أنه أسطول عجيب ، لكني ألتمس العذر إذا قلت إن منظره كان كئيباً جداً حسب ما بدا لناظري . فكل سفينة كانت تبدو قديمة ، غير معتنى بها ، قذرة الشكل . وأغلب السفن باهت اللون وقليل منها عليه مسحة الحياة . وقد رأينا صبياناً سمر الوجوه ، على رؤوسهم طواقي حمر ويرتدون سراويل بيض ، وهم يتسلقون الحبال ويثبون بمهارة فائقة .

رأينا بين القوارب التي اندفعت نحو سفينتنا ، قارب قنصلنا وقد كان مبطناً بنسيج قرمزي اللون ، يُسيِّره بالمجاديف أثنا عشر بحاراً سمراً ، حسان الوجوه . في مقدمتهم زنجيّ ، لامع الوجه ، معتدل القوام . فسترعى نظرنا بنوع خاص . وعلى رأسه عمامة بيضاء . وكان رداؤه العلوي أبيض وكذا سراويله . أما ملابسه الداخلية ، فكانت قرمزية لامعة . وقد بلغنا أن القنصل مريض ، طريح الفراش في القاهرة ، ولذا أناب عنه مندوبين لاستقبالنا ، أحدهما كاتب شاب ، كان دائم الارتجاف من فرط ما اعتراه من الحيرة والارتباك ، وكان الآخر رجلاً عادي المنظر .

وقد حُملت أمتعتنا بلا نظام ثم غادرنا السفينة واجتزنا الزوارق الصغيرة التي يملكها البحارة الذين يحتشدون نحو السفينة . وما أشد ما سمعناه من الصياح والجلبة بين جمهور من الناس ، سمر الوجوه ، فطس الأنوف ، غلاظ الشفاه ، يلبسون عمائم ويلتفون بثياب أحول وسطهم . وليس عليهم ملابس أخرى غير هذه . ووقف على الشاطىء جمهور من الجمال والحمير في انتظار المسافرين . وهنا حدث شجار بسببنا ، غير أنه ما لبث أن هدأ بفضل ما بذله مرشدونا من جهد . وبدلاً من أن نمتطي الحمير التي تكاد تبلغ مبلغ البغال

في الحجم والقوة ، وجدنا لحسن الحظ مركبة خفيفة ظريفة ، مبطّنة بحرير أبيض فركبناها ميممين المدينة . فكان أول منظر غريب ابتدر عيوننا الاوروبية ، جيش من الهجين ثم الأهالي على اختلاف أشكالهم وهم بدو مصر ونوبيون وأحباش سود وعبيد من ساحل أفريقا الغربي ، ذوو أنوف مسطحة ، عريضة وخفيفة . فكان منظرهم مما يدعو الى الاستغراب .

ومما لفت أنظارنا ، نساء الفلاحين المبرقعات . وهن يرتدين قمصاناً زرقاً وسراويل وبراقع من الحرير الاسود ذات ثلاثة أركان . وحول عيونهن دوائر سوداء ، مصبوغة . واستلفت نظرنا أيضاً ، شرفات المنازل الشرقية ، الدقيقة الصنع . وبعد أن اجتزنا كثيراً من الشوارع المتسعة والضيقة وسط زحام من الناس شتى اختلاف أشكالهم ، وصلنا ميداناً حافلاً بكثير من المنازل الاوروبية النمط تماماً وقد بناها محمد علي وهو يطالب لإيجارها ثمناً غالياً [١] :

وقفنا أمام منزل من هذه المنازل — هوتيل أوريانتال — وهو مبنى كبير من الحجر مرتفع القاعات ، وجميع نوافذه مغلقة : وخلف كل طبقة منه ، حجرة بها سريران . وتزين الغرف أرائك جميلة وبيانو وعدة صور باريسية محفورة . ومطبخ فاخر . فكان الفندق بالاختصار حاملاً جميع المزايا المتوفرة في فندق فرنسي أو ألماني حسن . غير أن عيبه الوحيد ، تهافت البعوض الذي يسبب الازعاج والأرق ليلاً في هذه البلاد لسوء الحظ .

لقد قضينا زمناً طويلاً في أول قدومنا مضطجعين على مقاعد النوافذ نتلهى بمراقبة منظر سير الهجين وهي محملة بالأحجار وتسير دائماً سيراً هادئاً حزيناً بخطوات متئدة على وتيرة واحدة . والأهالي المسلمون يرتدون ملابس شرقية زاهية ، ذات ألوان عديدة . والسياح الانجليز والفرنسيون بل والسيدات أيضاً يمتطون الخيل والحمير وهم يرون بمجرد أن يلقي الإنسان نظرة حول هذا الميدان الفسيح . ويحمل باعة التمائم والحلوى والليمون والشربات بضائعهم برشاقة على قمة رؤوسهم . أما السقاءون فيحملون قربهم المصنوعة من جلود الماعز ، وذلك بأن تدبغ بطريقة بدوية ثم يخاط العنق والأرجل . وبعضهم يسير على

---

(١) لا نعلم أن محمد علي باشا بنى في الاسكندرية منازل لإيجارها . ولعل المؤلف بلغه ذلك ولم يتحقق من صحته (المترجم)

الأقدام والبعض الآخر يتطون الجمال ويشقون طريقهم وسط الزحام .

وقد قضينا يومين في مشاهدة مناظر المدينة . ومنذ أول يوم قدمنا فيه، ركبنا الحمير وتجولنا في طريق لم نشاهد فيه شيئاً يستحق الذكر . وقد أعجبنا جداً بمنظر القصر الواقع على شاطىء البحر وبمنظر الجزء المخصص لحريم الباشا . فدخلنا القصر وأخذنا نفاوض الحارس وبعض كبار الاتراك الذين اجتمعوا بعد الغروب لتأدية أعمالهم في ليالي رمضان . وبذلك مهدنا السبيل للحصول على إذن يخول لنا مشاهدة القصر .

أرخى الليل سدوله عندما ركبنا الحمير عائدين الى المدينة التي كان يسودها الظلام ولم يكن هناك ما يفرج عنا هذه الوحشة الا ما كان يبدو من النور الضعيف المنبعث من القناديل . وكان شكل البلح الذي يأكله الناس هنا غير ناضج بديعاً . وكذا كان منظر البرتقال والليمون الأصفر يغري المارة على أكله ، إلا أن الاوربي قلما يستسيغها لشدة حموضتها ، فرقنا وترجلنا أمام جامع صعدنا منه درجاً عالياً . وهو يحتوي على باحة فسيحة بها أعمدة عديدة بيض ، بينها قضبان مدلى منها قناديل . وقد وقف المؤمنون يصلون في صفوف مستقيمة ، كل صف منها خلف الآخر . ويقابل المدخل مباشرة ، المعبد أو أقدس مكان وهو المحراب الذي يقف أمامه الامام . وكلما قال « الله أكبر » سجد جميع المصلين ولمست وجوههم الأرض . فكان لسجود هؤلاء المصلين[1] سجوداً متعاقباً وقيامهم ثانياً ، تأثير عجيب يهيج في نفوسنا حتى انا لم نستطع مقاومة رغبتنا طويلاً في مشاهدة هذا المنظر الطريف . فشاهدناه من خلال النوافذ ذات القضبان الحديدية ومن الباب المفتوح. وفي الحال ألقي علينا حجر فسقط في وسطنا بالضبط غير أنه لحسن الحظ أصابني فقط في جنبي بشدة . ولما فوجئنا بذلك ، كان سرورنا عظيماً عند ما أسرعنا وقفزنا فوق سروجنا وسرنا حتى بلغنا مقهى . هناك قدمت البنا « سيقات » صغيرة — رجيلات — وأخذنا ندخن . فلم يكلفني ذلك أي مجهود . ولم يكن طعم القهوة السوداء رديئاً . وقد جلسنا على أريكة خشبية عالية « دكة » فتدلت أرجلنا في الهواء . وعبثاً حاولنا الجلوس كما يجلس الاتراك، فتخلينا عن هذه المحاولة بأسين . وقد شاهدنا في هذا المقهى أنواعاً رديئة من خيال الظل

(١) قد تغير الحال الآن فان أكثر المصلين تراه في الجوامع مطربشين وأقلهم معممين (المترجم)

مصحوبة بغناء بالدف حسب اللعب عوضاً من التمثيل المسرحي بين الطبقة الراقية من أهالي الإسكندرية الشرقيين [١].

وفي صباح اليوم التالي (٣ اكتوبر)، أيقظتني وخزات البعوض الملهبة الذي كان قد نفذ من ستائري الرقيقة. إن هذه الحشرات تنزلق من غير أن يراها أحد داخل الستائر اذا كانت هناك فتحة مهما كانت صغيرة أو ثقب لا يلاحظ حتى بالفحص الدقيق كما تفحص الستائر يومياً. فاذا ما استقرت في مكان ضيق، لسعت لسعاً مؤلماً جداً.

ثم بدأنا سيرنا في أجل أنحاء المدينة بصحبة ترجماننا الروسي - وهو رجل متصف بأقل صفات حسن السلوك وأشد الغباوة!.

زرنا في اليوم التالي مسلة كليوباترا، وهي عبارة عن نصب تذكاري، موحش المنظر مطمورة في الرمل الى نصفها ومحاطة بجدران كبيرة الحجم متهدمة. وتشتمل تربة هذه الجهة من المدينة الى عمق بعيد على بقايا أحجار جيرية من آثار الاسكندرية القديمة. وتبدو هذه الانقاض كأنها محجر، فتؤخذ مواد البناء من هذا المخزن الارضي الذي لا ينضب والذي ينهب باستمرار.

لم أجد في زيارتي لمسلة كليوباترا إلا شيئاً قليلاً ذا أهمية، عدا عتبة طولها ١٨ بوصة وعند ما حاولت إمساكها، أخذت تتسلق المسلة. والعظايات كثيرة الوجود هنا بنوع خاص. وقد طالما ذكرتني بقصة نيلون الابله عندما كنت أراها تزحف بين أكوام الحجارة في خرائب القصور القديمة.

وقد دهشت من جهة أخرى، إذ سرتني رؤية الحدائق الشرقية الحديثة جداً، فبها مظلات مرتفعة ونوافير من المرمر. وقد قصدنا زيارتها راكبين المطايا في ٤ اكتوبر واجتزنا في طريقنا الضاحية، وهي بالقرب من المرفأ الجديد. ويحف بالجانبين أشجار النخل التي رفعت قامتها على الجدران المتهدمة. وكل شجرة من هذه الاشجار، تتألق بالثمار الغزيرة.

---

(١) انقرض خيال الظل تقريباً بعد أن انتشرت المسارح ودور السينما. أما الاراجوز الخشبية الحالية فلا توجد الآن إلا في قليل من المقاهي البلدية كأثر من آثر الماضي البعيد وقد استبدلت بالكراسي العادية (المترجم).

وكنا نسمع من آن لآخر صرير السانية الهرن التي غالباً ما يكون مركزها في أعلى قمة تحت ظل الأشجار الكثيفة . ومنها تسقى الحديقة باستمرار . والماء النقي العذب أثمن شيء ولا يجلب الى المدينة إلاّ بواسطة قرى . أما هذه الآبار العميقة ، فلا ينبع منها غير ماء مشوب بالملوحة لا يستعمل إلاّ للري اذ لا يصلح للشرب أبداً .

ثم ولجنا بيتاً مرتفعاً ، نظيفاً ، يكاد يكون منظره أوربيًّا . ومدخله بهو طويل ، مرصوف بنوع من الفسيفساء بحصوات بحرية سود وبيض ، يؤدي الى أول ساحة داخلية يكتنفها نوع من النباتات المائية القصيرة . وجدرانها مكسوة بكثير من أشجار الياسمين والورد الثمين الجميل وبأنواع أخرى من النباتات المعرشة الظريفة . وهناك ممر طويل مرصوف بقطع من الرخام ومسوّر كذلك بالنباتات المائية وينتهي بكمك أو فسطاط . وهو بناء واسع ، طلق الهواء ، مشيد بشكل مخروط ، شرقي الطراز تماماً وسطه عدّة نوافير ينبثق منها الماء في أحواض من المرمر الجميل . وكل شجرة من هذه النباتات التي تحيط بهذا السياج مثقلة أزهاراً . وان أزكاها رائحة ، الياسمين العربي . وعند هذا المكان ، مدخل الحديقة نفسها ، يفصل كل ممر من ممراتها ، أسوار مرتفعة من نبات إكليل الجبل — حصالبان — من الأخضر . وأعلاها مؤلف من أشجار الدفل والبرتقال والموز . أما النخل فانه يكوّن قسماً خاصًّا . وهنا نسم آخر للخضروات ، تزرع فيه أنواع عديدة من الليمون والقرع الاسطمبولي والخيار .

وبما أن رحلتنا قد أصيب بنوبة قشعريرة شديدة ، فقد اضطررنا أن نستأنف سيرنا بلا تابع . فتجولنا في منحدر عال على قمة حصن وصعدناه . ومع أن حارس الحصن الذي كان سيء المدة ، قد أشار الينا من أعلى اشارات إنذار واضحة بأن لا تقترب ، فاننا بلغنا القمة في الحال ومتعنا الطرف برؤية المنظر الساحر لكثير من الجوامع بالأسفل . وهي ممتدة بين حدائق النخل ويحيطها من جهة ، بحيرة مريوط ، الشبيهة بالبحر ، ومن جهة أخرى البحر المتوسط . ثم اننا لم نكد نجلس عند نهاية القنطرة المتداعية ، حتى قدم الينا الجند بحالة غضب لاختراقنا حصنهم . وحاولوا طردنا . وقد اجترأ أحدهم فقط أن يمد يده ، لكنه لم يلمسنا بالفعل بل لمس سائق الحمير . وبعد أن صاح الحارس صياحاً عالياً وصرخ صراخاً

عنيفاً باللسان العربي الذي يرن في أي وقت كأنه لغة شجار دائم ، انتهى الأمر بهم إلى تركنا حيث كنا (١)

وعند عودتنا ، اتخذنا طريقنا الى الأثر المسمى عمود بماي مارين بمقاة تصب في حوض قذر تغسل فيه الملابس . وهنا رأينا جمعاً من نساء وصبية قذرات يصحن ويتشاجرن ومن يرتدين ثياباً زرقاً وغاية في الدمامة . واللاتي بلا براقع سوداء منهن، يمسكن دائماً بأفواههن أطراف أرديتهن ويغطين بها نصف وجوههن . وأغلبهن يحملن أطفالهن على جانبي أكتافهن . وكان أهم عمل يؤديه الرجال الواقفون في الحوض هو حك ملابسهم بقسوة .

يؤدي الطريق إلى عمود بماي ، الى سهل مجدب ، محرق ، مغطى بالأحجار والرمال . وهناك كثير من المقابر في جهات شتى تتميز بحجارة قليلة غير مصقولة ، مبنية بالملاط وبلا نحت غالباً . أما العمود فقائم بمفرده . والظاهر انه كان تابعاً لمعبد عظيم . لكن ليس لتاجه ولا لأقسامه أي جمال بل انه يدل بالعكس على ذوق فاسد جمع بين النمط الحديث والقديم (٢)

من هنا قفلنا راجعين إلى قصر الباشا . وان الانسان لا يمكن أن يتصور مكاناً أجمل منه . انه قائم بالقرب من البحر عند المرفأ القديم يشرف على منظر الأسطول بأكمله . وقد بنيت سلالم القصر وقاعة التشريفات من رخام أبيض جميل . وأرض القاعات المستديرة المتقدمة مرصعة ترصيعاً بديعاً بالأخشاب الثمينة ، وعلى جوانبها قاعات الاحتفالات الرسمية ، قماش فاخر مزركش بانصور وهناك زهريات جميلة ، احداها مهداة من البابا . وكثير من الصور الملونة والأثاثات والخزانات الباريسية المملوءة بالطيور البرازيلية المحنطة وهذه كلها مصونة بعناية ونظافة بالغة وهي ترى داخل جدران مسكن محمد علي النفيس . هذا والذوق الفرنسي هناله شأن في تنظيم الترف الشرقي . ثم غادرنا القصر ونحن في غاية السرور . وهو ككل المباني الشرقية السفلى لا يتجاوز ارتفاعه دورين .

بعد تناول الغذاء ، انطلقنا مرة أخرى سائرين على الأقدام في غسق الليل في المدينة

---

(١) إن عدم تعرض حراس الحصن للسياح وتعرضهم لذلك الخير لم يكن جبناً منهم بل لانهم كانوا يعلمون أن السياح أجانب وان الساخطين هم الذين دلوهم على هذا المكان (المترجم)

(٢) هو عمود بومبيوس الذي بناه حاكم الاسكندرية تذكاري حدار دقلديانوس الاسكندرية ، وهو قطعة من الجرانيت الوردي ، بني على النمط الكورنثي ويبلغ طوله ٢٠،٨ متراً (المترجم)

التي أمضيها الآن الحرية بعد الغروب في رمضان . وأخذنا نمر آناً بشوارع مظلمة وآناً بمحال السمك أو الأسواق المضاءة بمصابيح من ورق ، والمكتظة بجميع أنواع المأكولات . وتجولنا إلى أن وصلنا مقهى نعماً تمتعنا فيه بالمناظر الشرقية . فهنا ترى المسلم في أحسن أوقات راحته ، يدخن غليونه ، والوجوه السمراء مختلطة بالسوداء ، والسوداء بالنحاسية اللون . والأسمال البالية بجانب الملابس الفانية ، والعمائم والطرابيش . وهؤلاء جميعاً في زحام من مختلف الألوان . وفي وسط المقهى ، نافورة ينبثق منها الماء [1] وكانت القهوة والشبك في غاية الحسن والنادل المرح بسترته وسراويله البيضاء ، يقدم لنا المصطكي لنمضغه فيخرجه من جيبه الذي في أعلى قميصه . ثم جاء بعض الموسيقيين واحتلوا مراكزهم في المقهى زيادة في التسلية . وهم مؤلفون من فتى أعمى مغنٍّ ، ورجل مسنٍّ يعزف بآلة ذات أوتار ممتدة على لوح كالقيثارة (عود) وكان الدف متمماً للآلات العزف ، ورجل مغنٍّ آخر على الأول لأن غناءهم يستدعي بذل جهد عظيم بسبب عادة هز الرأس باستمرار وأدارة العينين وتقطيب الوجه بشكل لا يتصور . وأعظم جزء من اللحن بالمفتاح الصغير ، فيستعيده أو يطلبه بالاسم صاحب المقهى قبل الغناء ثم يبدي سروره بالتصفيق بيديه . وقد آلم آذاننا عزف الآلات معاً ولاسيما لأنها كانت شديدة القرب منا . فآثرنا الذهاب الى فندقنا لاعداد العدة للرحيل في اليوم التالي .

في صبيحة ٥ أكتوبر ، ذهبنا الى سطح السفينة التي كانت ستقلع الى قناة المحمودية بعد أن تزودنا بكثير من المؤن وتبعنا ترجماننا ، وهو رجل أسود ، ذو عينين جميلتين واستقل قارباً يجره حبل

كان الريف حولنا قفراً لا أثر للحياة أو الخضرة فيه مما ينقبض له نفس السائح ولم يستلفت أنظارنا غير الأكواخ الطينية والسواقي والصقور المصرية الكثيرة وبعض الرجال البائسين ، أنصاف المتوحشين . وتقع القناة بأكملها في طبقة من الرمل والطين . وليس في معظم أنحاء الرابية التي تكتنفها ، عشب بالكلية .

---

(١) لم أر الا مقهى واحداً وسطه نافورة في القاهرة . الا أن هذه النوافير قد اختفت من المقاهي الآن وقد كانت تكسبها منظراً شرقياً بديعاً وترطب الجو (المترجم)

وقد وصلنا متأخرين في المساء الى المكان الذي تتلاقى فيه القناة بالنيل . وبالقرب منه قرية العطف الحقيرة التي يقطن أهلوها مع دواجنهم في دور كأعشاش الخطاطيف ! وملتقى القناة بمياه المجرى محجوز بأبواب خزان . فوجدنا هناك باخرة فخمة مضاءة بأنوار بديعة راسية أمام منزل مؤلف من دورين . وهناك قدمت الينا القهوة . وعند ما صعدنا سطح السفينة ، حيتنا الموسيقى بصوت عال . فوجدنا كل شيء منظماً أحسن نظام . وكانت مؤخرة السفينة محاطة بالأرائك المخملية الارجوانية اللون والحجرة المعدة لنا رطبة ، طلقة الهواء فتمتعنا بنوم منعش جداً لا يعدله شيء وذلك إما لتأثير خيالنا أو من جراء هواء النيل المعتدل المفيد . وفي هذه الاثناء كان جميع خدام السفينة يتجددون كل ثلاث أو أربع ساعات هذا والموسيقى تصدح بقوة والطبول تدق على نغمات أدوار بلليني ودونيزتي . لكن لم يفكر أحد في أن آذاننا تمزق قطعاً في سبيل تسليتنا . وأخيراً أفهمناهم جلياً أننا لسنا من هواة الموسيقى . وفي صبيحة يوم ٦ أكتوبر ، تناولنا فطوراً خفيفاً جداً . اذ كان زادنا قد نفد سريعاً ولذلك استولت علينا الدهشة عند ما حان وقت الغذاء ورأينا طاهي الباخرة يضع أمامنا صحوناً عديدة من المآكل العربية الشهية وأغلبها مؤلف من أرز أو دقيق ، لذيذ الطعم جداً . وكثير منها لا يلائم ذوقنا لكثرة دهنها ولأنها مصنوعة من دقيق الحنطة والحقيقة إنه لا الطعام ولا الموسيقى المصرية الصاخبة والطبل تعوّض ما قد أصابنا من السآمة من مشاهدة منظر شواطىء النيل .

إن اتساع الماء ولونه المضطرب والأحمر والاصفر ، يملأ السهل المنخفض الأجدب الذي ليس فيه أثر للخضرة التي يتوقع أن يراها الانسان بعد الفيضان مباشرة . ولا يوجد على حافة النهر الخارجية ، غير قليل من الأعشاب الجافة التي تتسابق النوق لرعي كل ذرة منها بغاية السرعة وكذا قطعان الجاموس العديدة التي تقف بخراطيمها في الماء العكر .

هنالك نرى في جهات متعددة من خمسين إلى مئة نخلة . يبلغ ارتفاع بعضها ثمانين أو ستين قدماً وشكلها بديع وهي مزينة بمحصول وافر من عناقيد جميلة ثمة بالبلح الاحمر والأصفر . وعند مرورنا تحت تلك الأشجار النامية بالقرب من جانب الماء ، شاهدنا في الظلام تحت قمة الأوراق الكثيرة على ارتفاع ثمانين قدماً رجلاً منهمكاً في جمع البلح داخل ... ثم أخذ

يلفها ويحملها إلى ذلك المكان المرتفع . وكان الأهالي المجتمعون في ذلك الوقت يرقبون عمله .

والعادة أن يكون لكل مجموعة من أشجار النخل ، قرية صغيرة على مقربة منها . إلا أنه في الغالب يصعب على الانسان اكتشافها لأن ذلك يحتاج إلى عين اعتادت رؤية هذه المواقع .

ان المادة التي تبنى بها الأكواخ، هي من التربة التي تحت الأقدام . فيأخذ القرويون قطعاً منها ويجففونها في الشمس على شكل قوالب طوب خشن أو على شكل طين جامد غالباً . وبهذه القطع يشيدون مباني مستديرة أو مربعة أو مخروطية كما يريدون ، لا يتجاوز ارتفاعها غالباً أربعة أقدام . وتقوم الطاقة في البناء مقام الباب والنافذة معاً . وتشبه القرية ، إذا شاهدها الانسان من أي مكان قريب ، مجموعة من أعشاش الخطاطيف ، بنيت بالقرب من بعضها . وإن شناعة داخل هذه التلال الصغيرة ، لتتضح من القذارة الدائمة العالقة بهذه المخلوقات البائسة الحقيرة الداكنة . وان كانوا في الظاهر يسهلون رقبة اطاقتهم بالاقلال ما أمكن من خزانة ملابسهم ! وما أتعس وأفظع رؤية الرجال البائسين والحبال الخشنة المربوطة بانحراف حول صدورهم وهم يجرون القوارب عكس تيار النهر . وأجسامهم ملوحة سلخاً مريعاً ومغطاة بالقروح كأفظع خيول مركبات النقل عندنا . أما النساء فتدثرات بثياب طويلة زرقاء قاتمة وهن يتخذن أحد أطرافها لتغطية الرأس . ولا حاجة الى نصف النقاب الأسود حتى في أحوال الدمامة الشديدة

ان النقاب (البرقع) عبارة عن قطعة طويلة من الحرير الأسود ، ذات ثلاثة أركان توثق بأزرار نحاسية إلى قمة غطاء الرأس بحيث يعلق تحت العينين . ومنظر الثوب بأمره ، غاية في الشناعة .

وترى هنا وهناك بحيرة كبيرة من مخلفات الفيضان بجانبها مجموعة من أشجار السنط والجميز . وتحت ظلالها جاموس يجر الساقية لري حقول القمح والذرة الشامية ، في حين يسقي الفيضان المرتفع أشجار النخل .

الساقية آلة بسيطة تتركب من عجلة كبيرة ، معلق على محيطها الخارجي قواديس من فخار تحمل الماء الى الخارج من أخدود صغير بالقرب من العجلة وتصبه في حوض من خشب

أو في قناة . ويسمع صرير هذه العجلات في جميع أنحاء مصر ويصاحبه غناء سائق الثيران وهو أشد منه حزناً لان العربي لا يؤدي أي عمل من غير أن يقرنه بالغناء . ولهذا الفن شأن وضيع جداً في الزراعة . إنهم يغنون كل شيء من الأنف أو بالحري يضغطون النغمات ثم يخرجونها بكيفية غريبة جداً . لان معظم توقيعاتهم بالمفاتيح الموسيقية الصغيرة ، ليس لها إلا نغمات قليلة . وأخص فنهم ، هو إخراج نغمات بدوية متشابهة لا يستطيع تقليدها الموسيقيون في أوربا حتى بعد جهد جهيد . وان لهم صوتاً غريباً . وهو في الغالب غير جبار . غير أنه يثير الاضطراب والدهشة .

وقد كنت أشاهد من آن لآخر ، وان كان ذلك في النادر ، على طول شواطىء النهر ، حقلاً مسطحاً . مغطى بعشب طويل كالحلفاء . إلا أن الخضرة ليست عامة على السطح المستوي .

كان فرع النيل يتلألأ هنا وهناك على بعد أو كان مجراه مرسوماً بشراع أبيض صغير بشكل رباعي عادة ، ومربوطاً بسارية مائلة من القمة .

وقد وعدنا ربان السفينة أن يصل الى القاهرة قبل الساعة الثالثة ، غير أن التيار كان قوياً جداً بسبب هبوط الفيضان . فحال ذلك دون تقدمنا سريعاً . وعلى ذلك مرت الساعة تلو الساعة وفي حوالي الغروب ، ظهرت الاهرامات أخيراً ، وهي قائمة كأشباح هائلة في الأفق الاحمر . فاسترعت كل نظرة من نظراتنا إلى أن توارت في الشفق المعتم . ثم غشينا الظلام الحالك ، فلم نر أي ضوء ولا سفينة ولا أي شيء نستدل به على اقترابنا من العاصمة التي يبلغ عدد سكانها نحو مائتي ألف نسمة .

وقد عيل صبرنا ولم يكن من السهل تهدئة ثائرة ما اعترانا من القلق بالرغم من أن الموسيقيين السمر بشدتهم وسراويلهم البيضاء كانوا يبذلون كل جهد لتحطيم آذاننا وحصر التفاتنا . وبعد انتهاء العزف ، التجأنا الى مأوانا الليلي فكان صدى صوت الموسيقى وخرير الماء لا يزالان يرددان نغماتنا الوطنية . ثم ساد سكون عميق في جميع أنحاء سطح السفينة واشتغل الملاحون السمر من كل فج إذ فتنهم سحر الموسيقى الطريفة عندهم .

ظهرت أخيراً القاهرة أمامنا ، وعلى الاقل كانت الانوار تتلألأ على الشاطىء . وقد

حدث أن دارت سفينتنا دورة خطيرة ثم اصطدمت بمركب شراعي ، محمل بالحجارة . فسقط كثير من الرجال في النهر وارتفعت أصوات التجار الخيفة وصيحات الموت . ولم يقتصر الأمر على تبادل الألفاظ ، بل تبادلوا اللكم . وظهر على الشاطيء قوم يحملون أوعية من الحديد كالبراميل ، مربوطة الى هواخص ومملئة خشباً مشتعلا وقشاً أو نفاية لتكون بمثابة مصابيح متأججة . ولم نر شيئاً من المركبات الموعودة . وكانت الحمير مع ذلك واقفة على أهبة الاستعداد والرجال السمر ، الصم كقطاع الطرق يلوحون بعصيهم ويصيحون صيحات مزعجة ، وكل واحد منهم يتحرك على دابته . فركبنا بعد أن أعددنا المعدات الضرورية الخاصة بأمتعتنا . ثم خلفنا خدمنا وتراجماننا للبقاء معها وحراستها . وكانت هذه الحيطة ضرورية نظراً الى حالة البلدة . المختلة النظام والشوارع الضيقة والسرقات المتعددة في منتصف الليل . ثم اننا أسرعنا وامتطينا حميرنا وحملنا معنا من الأمتعة ما تمس إليه الحاجة فقط وأطلقنا العنان للحمير . وهكذا اندفع موكبنا نحو المدينة . وكان في المقدمة دليلان ، بيد كل منهما مشعل ككلاب الصيد التي تقتفي الأثر . هذا وقد أخذنا نمر بأزقة ضيقة مظلمة وطرق مسدودة غالباً بالقاذورات المختلفة الأنواع والأحجام .

وقد حدثت كارثة صغيرة ، وهي أن أحد الراكبين كان معه صندوق ثقيل ، داخله نقوده ، فوقع على الأرض غير أنه لحسن الحظ نجا من الأذى . هذا هو الحادث الوحيد الذي وقع بنا . وأن المرور الذي جرى في قومنا من منظر دخولنا ليلا ، استغرق نحو نصف ساعة من بدء ركوبنا . وأخيراً وجدنا أنفسنا أمام باب كبير ، هو باب هوتيل أورينتال . وهذا الفندق ، مسكن جميل الموقع جداً ، كثير الشبه بالمنازل الانجليزية . فلما فتح الباب ، بحثنا في ذلك المبنى المتسع كله عن نزول أو خدم فلم نجد أحداً . إلا أن وقاحة سائق الحمير لم تقف عند حد حتى عمرنة عصبنا . وأخيراً بعد أن بذلنا جهوداً كثيرة ، أفلحنا في إيقاظ رجل زنجي كان غارقاً في النوم . فاذا به يعرف قليلا من اللغة الايطالية . وفي الحال حل منا كلنا بسوطه الطويل من جلد فرس النهر (كرباج) فانهال به ضرباً ذات اليمين وذات الشمال على النائمين المتمددين على الأرض في كل جانب بلا أي غطاء . أما من جهة غرفنا ، فقد اعترضنا في بادىء الأمر صعوبة عظيمة في اقناع الناس بما يلائمنا . ثم امتولينا

على الفنادق اللازمة . ومع ذلك كانت الحجرة التي استلقينا عليها متعبين ، حسنة جداً . وكانت الستائر سميكة وبلا ثقوب بحيث حالت دون تطرق البعوض الى داخلها . هذا ولم ندرك مزايا الحجرات الا أخيراً في اليوم التالي. وكان صاحب الفندق رجلاً فرنسياً صاحب أملاك في الاسكندرية ، فقدم لنا إعتذارات كثيرة وأدخلنا بهواً فخماً وحجرة أكل مؤثثة بالاثاث التركية . وكانت الحوائط مزينة بالنقوش الانجليزية والفرنسية الجميلة ويوجد في البهو بيانو لا أهمية له.

في اليوم التالي، أشرقت الشمس ففتحت الدرف الفينيقية . ما أبهج هذا المنظر الساحر! إن على يسارنا صفاً طويلاً من المنازل الشرقية ، ذات الشرفات المصنوعة من الخشب المخروط الثمين (المشربية) بدلاً من النوافذ ويتخلل المنازل أشجار الجميز والنخل وقد تجاوز ارتفاعها جدران الحدائق . وينتهي صف المنازل الطويل والقصور بمنارة طويلة بديعة . وتوجد في الصدر عدة مبان كهذه مدهونة بالدهان الأحمر والأبيض البهيج. وبالوسط أشجار النخل المخططة تخطيطاً مرئياً في الأفق الأزرق. ويجاورها الى يميننا هرما الجيزة الماثلان وما يزيدان جلال التلال التي يبرزها جمال المنظر . وتقع الصحراء الى يميننا على الأفق حيث يسهل تمييزها بجوها إذ يطفو عليها غبار كثيف ذو لون رمادي ضارب الى الصفرة . والأرض التي أمامنا جميلة لأنها تشتمل على أشجار التين المكسوة بخضرة الربيع اليانعة ، تتخللها حقول الذرة المترعرعة . وفي وسط الصورة بركة صغيرة محاطة بأشجار النخل . وبالقرب من هذه البركة أعظم الطرق المؤدية الى المدينة ، وهو طريق يخترق ميداناً واسعاً يسمى « الازبكية » تطل عليه نوافذ فندقنا . هنالك شاهدت حميراً محملة بالفواكه وفي أثرها ، جمال السائقين السمر الوجوه ، يسيرون نحو المدينة ، تتبعها سلسلة من الهجن محملات ثقيلة . وكل هجين مربوط بحبل الى الذي أمامه . والنساء يسرن بملابسهن وبراقعهن الزرقاء ، على رؤوسهن أوعية كبيرة وأخرى أصغر منها على أكفهن المرتفعة وعلى أكتافهن من الجانبين أطفال عرايا غالباً ، ويمشي الأقباط البيض بعمائمهم السود والنوبيون السود بعمائمهم البيضاء الطويلة . والأعراب النحفاء الجسم ، النابلون المتدثرون والأتراك والأرمن السمان . القباح ، النظاف ، جميع هؤلاء يسيرون نحو المدينة . ان

الإنسان لينعش نظره بالقرب من أمام نوافذنا بأوراق أشجار اللبخ والجميز الوافرة ومن المحال وصف السرور الذي نشعر به مرة أخرى لرؤية الأشجار الخضراء التي أصبنا لحرماننا منها منذ غادرنا النمسا. فهنا الظل وهنا الماء. هنا الفرش النظيفة والفطور الشهي. وبعد أن تناولنا الفطور، لم يقف بنا حب الاستطلاع عند حد، فوثبنا على ظهور الحمير التي كانت واقفة على أهبة الاستعداد تحت نوافذنا. وفي الحال انطلقنا من غير أن نضيع وقتاً، ميممين شطر مدينة الخلفاء. حيث يجد السائح عالماً جديداً بالمرة مما يدهش له نظره فلا يدري أين يلقي عينيه أولاً. هل يبصر المساكن البهيجة المتعددة الألوان، المزينة بالنقوش المنحوتة؟ أو الجوامع البديعة المتخربة أو الحوانيت لتجار الأغنياء أو حتى الجماهير المتندة من جميع أمم الشرق؟ لقد كان من المتعذر علينا اجتياز الزحام الشديد بالقرب منا، لأن عرض الشارع في العادة من أربع خطوات الى ست لا غير. وقد استطاع ترجماننا المسلح بسوطه الشائك، المصنوع من جلد فرس النهر، أن يفسح لنا الطريق بلا مراعاة أي كلفة، فأخذ يضرب جميع السائرين المتلكئين ضرباً قوياً. وفي الحال أزال كل عقبة تعترض سبيلنا، حتى أن الجمال المثقلة بالأحمال اضطرت أن تذعن لهذه المعاملة [1].

... [illegible] ... ما أمكن. وفي العادة كان يرافقنا انكشاري ... (يسمون قواسين) وهؤلاء غالباً ما تكون مرافقتهم مصدراً للضايقة. وهم وإن كان مظهرهم جميلاً إلا أنه ليس لوجودهم أقل فائدة. إذ لا يجهل أحد أن اللصوص يسطون عليه. وان ما يرويه السائحون من البيانات بهذا الشأن، مبالغ فيه كثيراً.

ومنذ اللحظة الأولى التي يخترق فيها الأوربي شوارع القاهرة، لا يستطيع أن يكف عن التفكير في أنه متى دخل نطاق القاهرة ـ يشاهد ويفتقر ويصاب بالوهن من جراء الجادة والطاعون. فلا يستميله غير بقايا المجد الغابر. غير أن هذا المجد كان عظيماً وعاطفياً بالبنيان بأكمله وبكيان المدينة نفسها بدرجة أن الهمجية الطويلة العهد لم يكن في مقدورها القضاء عليه

---

(١) لا يستطيع ترجمان أو أي انسان الآن أن يضرب المارة أو يتعدى عليهم ليفسح الطريق مهما كان مسلحاً ومهما كان الطريق مزدحماً. لأن الجمهور الآن ليس هو الجمهور في ذلك الزمان. هذا وقد اتسعت الشوارع اتساعاً عظيماً حتى بلغ عرض بعضها ٤٠ متراً أو أكثر (المترجم).

أينما وجه الانسان نظره ، كان الخشب المخروط المتقن الذي صنعت منه المشربيات ، الطلقة الهواء وأبواب القصور المتداعية المتخذة من البرنز الجميل والزخارف المنحوتة المثبتة داخل الجوامع القديمة ، كان كل ذلك شاهداً على الذوق السليم والمهارة الفنية في عصر الخلفاء

ومن حسن الحظ أنه قلما تسقط قطرة من المطر بين هذه الخرائب . اذ لولا ذلك ، لكان من المحال أن تبقى تلك الآثار الكثيرة من الفنون الجميلة ، محفوظة من القرن الحادي عشر بل من القرن العاشر ، لأنه منذ ذلك العهد الجديد لم يصلح شيء منها بل بالعكس كان كل شيء عاملاً على الحط من جمال الآثار القديمة حتى أصبحت أكواماً من قطع عظامة اتخذت مواد لتشييد كثير من المباني الحديثة[1] :

أتذكر أننا في أول يوم قدمنا فيه القاهرة (١٨ اكتوبر) توجهنا إلى القلعة لنتمتع بمشاهدة منظر المدينة العام . فهناك تمتد العاصمة الى السهل المتسع السفلي الذي يكسوه اللون الرمادي القاتم . وان منظر الضواحي التي بنيت منازلها من الطين وحده في غاية الكآبة . ويليها أيضاً أكوام القمامة والانقاض المنتشرة . وقد دعت الضرورة إلى شق الطرق خلالها . ونرى في هذه الضواحي بعض الجوامع والمآذن العتيقة ، ظاهرة بشكل محزن ، شبيه بالموت . وهي أمتن من كل ما حولها . والآن ويا للأسف ! لا يقيم تحتها غير الكلاب ولا يعلوها غير اليمام والغربان .

لما أجلنا النظر حول محيط هذه الانقاض الكثيرة ، استطعنا أن نكون فكرة عن اتساع حجم المدينة القديمة . التي كان عدد سكانها فيما مضى ٨٠٠٫٠٠٠ نسمة . فأصبحوا لا يتجاوزون ٢٠٠٫٠٠٠ [2]

يوجد أسفل القلعة مباشرة ، وهي التي ترتكز على أساس صلب من حجر الجير ، عدد من المباني الطويلة والوضيعة ، الرمادية اللون ، ذات سطوح مستوية ، مغطاة بروث الجمال بدلاً من الأسفلت وليس لحيطانها نوافذ . ومنظرها كمنظر الورق المقوى . وارتفاعها

---

(١) أنشئت بعد ذلك السيد دار الآثار العربية وتألفت لجنة حفظ الآثار التي قامت باصلاح وترميم المباني الاثرية وعملت على المحافظة على جانب وافر منها (المترجم)

(٢) يبلغ عدد سكان القاهرة الآن نحو ٠٠٠ ر ... ر ٢ (المترجم)

من ثمانية أقدام الى عشرة . يشغل كل منها سطحاً مساحته عشرون قدماً مربعاً . وهذه المباني هي ثكنات مؤقتة يقطنها الجنود مع زوجاتهم وأطفالهم في زحام شديد !

ان اللون الرمادي هو اللون السائد في المدينة بأجمعها . ونرى هنا وهناك مآذن آية من آيات الفن المعماري ملونة باللون الاحمر والأبيض تسر الناظرين . أو نرى قبة جامع قديم تضيء على طول الصخر الرخري المنحوت . ثم ألقينا نظرة طويلة ، بكل سرور على الاهرامات البادية الاشراق في ضوء الشمس بين السديم الذهبي المشرق على الصحراء . ويوجد بينها وبين المدينة خط بهيج من الخضرة ، تلك أشجار يانعة ، وافرة الأوراق . وحقول متناثرة من القمح أو الذرة . ثم شاهدنا عن بعد مصدر جميع هذه البركات — النيل الذي يتألق كبحيرة عظيمة ، وسط الأشجار . وإلى يسارنا ، أجمة صغيرة من أشجار النخل ، تكون حاجتها تخوم الصحراء . وإلى يميننا تمتد جبال المقطم الكلسية كالجدار الأبيض المستقيم .

إن محيط القاهرة الجديدة ، لا يزال عظيماً جداً بالنسبة الى عدد السكان . فهي تبلغ ضعفي أو ثلاثة أضعاف مساحة برلين تقريباً . ويدخل في نطاق هذه المساحة طبعاً أكوام الخرائب الكبيرة . وكذا الطرق في بعض الانحاء التي تكاد تكون خالية من السكان والتي يشغل أعظم جزء منها منازل متهدمة .

بعد أن نزلنا من أعلى قمة في القلعة ، بدأنا بزيارة الجامع الذي أمر بتشييده الباشا (محمد علي باشا) ولم يتم بناؤه . وهو بناء فخم ، فسيح جداً إلا أنه مزيج من النمط المصري والنمط الحديث[1] ويرجع جماله بنوع خاص الى صفه المتخذة من الرخام الشرقي النفيس وقد أقيم منها خمسون عموداً . وان محاريب الجامع وأفاريزه الصفراء وكاشيه التي من القيشاني هي من أغلى أنواع الحجارة في مصر . ومن الغريب أن الباشا الذي يبني بدأب كثير من المباني ، لم يفكر في إصلاح أحد الجوامع القديمة ذات الجمال المنقطع النظير[2]

(١) بنى جامع محمد علي باشا على نمط جوامع القسطنطينية (المترجم)

(٢) كان لمحمد علي باشا عذر في ترك تلك الجوامع الاثرية المتهدمة على حالها لان موارد مصر في عهده لم تكن تخول له الانفاق على اصلاحها . وقد أصلح ورمم عدد عظيم منها فيما بعد بفضل توفر المال وجهود لجنة حفظ الآثار (المترجم)

ثم إننا حاولنا أن نحصل على إذن لمشاهدة جزء من داخل قصر الباشا على الأقل . فحصل ضابط قديم على ترخيص لنا بالدخول مع أن الترخيص كان قد رفض من قبل . وقد استولت علينا الدهشة وشعرنا بالخيبة عندما دخلنا حجرات الحاشية التي تحيط بالحديقة ، إذ وجدنا أنفسنا في حجرة الانتظار فإذا هي مفروشة بحصير وجدرانها مطلية بالجير الرمادي اللون والخطوط الحمراء . ثم إن غرف الاستقبال نفسها . لا تفضلها ، فهي مؤثثة بالأرائك المتسخة والملونة وتستند الى حوائط ينم شكلها عن أنها كانت بيضاء فيما مضى . وبالساحة الأمامية ، فصيلة من جنود الرديف المصريين . فتش فريقنا الأجنبي المحب للاستطلاع ، أسلحتهم ومعداتهم تفتيشاً دقيقاً . والجندي المصري ليس قبيح المنظر . وقد يتبادر للذهن عند رؤيته انه يعامل معاملة حسنة إذا لم نكن نعلم أن الآباء هنا غالباً ما يفقأون عين أحد أبنائهم أو يقطعون الأصبع السبابة لليد اليسرى لئلا يكون فريسة لقسوة معاملة الباشا الذين يعملون في الخدمة العسكرية (1)

يرتدي الجنود المشاة ستراً فضفاضة زرقاء وصديريات بيضاء ومناطق حمراء وأحذية بيضاء تبلغ الكعب وأخفافاً حمراً على أقدامهم العارية . وغطاء الرأس طاقية حمراء تشبه غطاء الرأس عند اليونان . ويسمى في مصر بالطربوش .

يوجد بأسفل القلعة ، بئر غريبة جداً ، هي البئر الوحيدة في جميع أنحاء مصر لأن الأهالي على العموم يشربون ماء النيل . ويقال إنها بئر عتيقة ، تعرف ببئر يوسف . لا يتجاوز عمقها عن ٣٠٠ قدم . محفورة في صخرة من حجر الجير . ويوجد حول البئر تقريباً سلالم ملتفة مبنية بناء بديعاً . وبالجدار الداخلي ، نوافذ تمد ذلك العمق السحيق ببصيص من النور .

وبالقرب من سفح القلعة ، بناء جانبي صغير لاصق بها ، هو معرض الوحوش الذي أنشأه محمد علي باشا وبه بعض الأسد والضباع ، مربوطة إلى الحوائط بسلاسل قوية هائلة بالقرب من أوكارها القذرة . غير أن الحيوان الذي يستحق الذكر هو النمر .

---

(1) لا يرجع السبب في ذلك إلى شراسة المعاملة كما تصور المؤلف بل الى قلة المرتب وحرمان أسرة الجندي من الانتفاع بعمله مدة طويلة (المترجم).

وقد زرنا عند عودتنا سوقاً . وان جميع طرق الأسواق متشابهة من حيث أن اتساعها لا يزيد عن أربع أو خمس خطوات . وهي غير مرصوفة ومغطاة بسقيفة تمتد من جانبي أدوار المنازل العليا . ويبدو منظرها مظلماً .

والتجار يبيعون البضائع الحريرية . وقليل منها مصنوع في مصر . فأغلبها يرد من القسطنطينية . وهناك بعض الخياطين يبيعون ملابس جاهزة . ونرى كثيراً من الدلالين يحملون بأيديهم أسلحة فضية مموّهة بالذهب ، والشيلان والقلايين والشبك . انهم يجلسون القرفصاء وسط الزحام وأولادهم القذرون العشار يمصون البرتقال الحلو والرمان . وان ملابس هؤلاء الأطفال في العادة عبارة عن قمصان من القطن الأزرق ، ذات أكمام واسعة ، مربوطة بحبل أحمر من الصوف ، ملق الى العنق ومتقاطع من الخلف . وقلما يلبس الاولاد العمائم . فهم يكتفون غالباً بالطرابيش . أما التجار الذين يبيعون أنواع الحرير والأقمشة (وتسمى المباسم) فهم أتراك في الغالب نظاف ، يرتدون ملابس تركية جميلة . ويرتدي العربي الغني (يريد المصري) قميصاً أبيض وسراويل بيضاء ويتمنطق بحزام عريض من الحرير . أما باقي ملابسه فمؤلفة من سترة من نسيج الحرير أو القطن ، ذات كمين مفتوحين أو جلباب واسع يصل الى الكمين ، وخفين أصفرين يليين جلده ، وعليهما خفان أحمران .

نرى نساء الفلاحين هنا في جموع من أطفالهن العرايا الذين يعلوهم الهوام يبعن سوقاً من شكلها مدرج أو العجين ، نصف الخبز أو العيش الأبيض والخيار والبرتقال الحلو . وملابسهن نوع من الرداء الأزرق الطويل ، ينتهي بغطاء يستر الرأس . والبرقع الأسود مشدود الى قصبة الأنف ومربوط بشبك من نحاس مؤلف من ثلاثة أزرار صغيرة منظومة في سلك في طرف هذا الرداء الطويل المتدلي على الجبهة . ومع ذلك فكثيرات منهن حتى الفتيات قد أبطلن استعمال هذا البرقع المتعب الكريه . فلذلك يستبدلنه بامساك طرف الرداء الطويل بين أسنانهن ويرمقن الاجنبي خلسة . وقد انتشرت بينهن عادة تزجيج العيون بالكحل الأزرق القاتم وصبغ الأظافر بالحناء الحمراء حتى بين أحط الطبقات . وقد أكسبتهن عادة حمل الأثقال على رؤوسهن باستمرار ، رشاقة وتموجاً في المشي . فهن بهذا يمشين أكثر من الواسعة الطويلة من التدلي على أيديهن بما أثمنه من رديها وعلى رؤوسهن حتى صارت مشيتهن غريبة وجميلة

حركاتهن متوازنة ولا يلبسن أحزمة أبداً . لهذا نجد أجسامهن ذات شكل سمين ومظهر ممتلىء وهن مع حرصهن على اخفاء وجوههن لا يرتبن في الكشف ، لأننا نرى إتساعاً في فتحة الرداء من العنق . والسراويل جزء ضروري ، لكنهن حفاة لا يستعملن الأحذية اذ أنها خاصة بنساء الطبقة الراقية اللاتي يظهرن في الشوارع عادة ممتطيات الحمير ووراءهن الخدم . وملابسهن بيضاً ، غالباً بدلاً من الملابس الزرقاء ، وعلى رؤوسهن برانس صغيرة من حرير أسود تتدلى على الاكتاف والظهور ، تباين بقية الملابس مباينة شديدة . ويجلسن على سروج الرجال من الجانبين بحيث يكون الركاب عالياً جداً فيمتطينه بغاية الصعوبة . ومن مظاهر الترف العظيم ، الخيول المطهمة ، وغطاء سروجها مصنوعة من قطيفة أرجوانية اللون مطرزة بالذهب تطريزاً غنياً ومثبت عليها رقائق من ذهب يتدلى منها كثير من الاهداب المزركشة . ان جميع الذين لهم أي اعتبار ، هم الاتراك وأغلبهم ينتمون الى الجيش ويرتدون ملابس تركية النمط ، عدا العمائم فانها قلما ترى بشكلها الأصلي العالي . وهم يلبسون سراويل تستر الركبة وتوعاً من الكلزا أو غطاء الساق وصدرة مزركشة ذات لون أزرق أو أحمر في الغالب ومنطقة حريرية عريضة فيها مدية غدارات وسيف قصير داخل غمد فضي . هذا وليس الطربوش عام الشيوع . ومن المناظر المألوفة بين الجمهور المرح المختلط ، المختلف الأزياء ، القبطي بوجهه الأصفر وملامحه الدالة على الملق . أما ملابسه وعمامته ، فسوداء . والحاخامون يلبسون عمائم سوداء أكبر (٤) وكذا مفسرو القرآن ، أما الأشراف ، فيلبسون عمائم خضراء كبيرة ، غير أني لم أرهم بالفعل إلا في المساجد .

في ثاني يوم من قدومنا القاهرة (٩ اكتوبر) ، ذهبنا نتنزه إلى ما يسمى مقابر الخلفاء فمررنا الى أقرب باب لتلال المقطم لزيارة أول مكان ، جامع قايتباي ، المشيد في القرن الخامس عشر (١) وهو بناء كبير ، نصفه متهدم ، يشبه المعبد ، وتعلوه قبة ومنارة لطيفة ، مستدقة الرأس . وقد سقط طلاء سقف الجامع وبقي الطلاء الجميل . أما الرسوم العربية التي تغطي جانب الحوائط وتحيط بالنوافذ ، فغير ظاهرة إلا في بعض الجهات مصادفة . وأما قضبان النوافذ الشعرية المصنوعة من البرنز الصب ، فلا تزال باقية بحالة

---

(١) بني جامع قايتباي سنة ١٤٧٠ م (المترجم)

جيدة ، وكذا زخارف الأبواب البرنزية . وليس هذا مما يدعو الى الدهشة بالنسبة الى جفاف الجو . ومع ذلك فقد طرأ تغيير عظيم في حضارة الأرض . لم يبق منها غير آثار قليلة من الفسيفساء في الأفاريز وهي من رخام أصفر وأبيض . أما مقبرة قيتباي نفسها فهي تحت القبة فيها قطعة قديمة من حجر الصوان تمثل آثار قدم محمد (صلى الله عليه وسلم) وضريح السلطان ، داخل شبكا من الخشب المخروط . وقد كان فيما مضى مموّهاً بالذهب ، وبقاؤها ضيقة جداً بحيث لا يسهل رؤية المصحف الموضوع على القبر . ولا تنحل عظمة نقوش القبة المنحوتة إلا بأجواء منعزلة في جهات مختلفة . ومع هذا يمكن أن يقال أن البناء بوجه عام يستطاع إصلاحه بغاية السهولة.

ثم أننا ركبنا واجتزنا ساحة قفراء من الخرائب ، وهي عبارة عن تلال يبلغ ارتفاعها من ثلاثين الى خمسين قدماً مكونة من قطع من جرار وأنقاض مبان قديمة العهد ، منثورة أمامنا ، يتضح منها إتساع مدينة الخلفاء . وقد وصلنا سريعاً الى المدافن وبعضها عاطل بالجدران . وتدل الجوامع القديمة والقباب على مقابر الخلفاء الموجودة في كل مكان . وكثير منها مغطى بالرسوم الجميلة المنحوتة في حجر الكلس نحتاً بديعاً كأن نسيجاً مطرّزاً تطريزاً دقيقاً قد ألقي عليها . فدخلنا أتم هذه الجوامع الأثرية أعني جامع البرقوق الذي يرجع عهد نشأته الى القرن الرابع عشر [1] وهناك يخيم السكون بدرجة عظيمة لبعد الجامع عن المدينة . فلا تسمع الأصوات الحية إلا من الأطفال الصغار عند الأسوار وهم من الأسر الفقيرة الذين يقطنون في الحجرات الجانبية المجاورة .

في الجامع ساحة مكشوفة في منتصفها نافورة تظلها الأشجار وحولها أروقة مقنطرة ، تحملها عمد رفيعة مزينة برسوم عربية متنوعة وقد صارت القبب الخشبية قاتمة اللون لطول عهدها . غير أن آثارها تدل على أنها كانت فيما مضى مموّهة بالذهب مما أثار إعجابنا بجمالها . وهذا الجامع لا قبة له . وإننا اذا أدرجنا الجوامع المتهدمة في الاحصاء ، بلغ عددها مائتين على الأقل ، وسقيفة المدخل تعلوها قبة مرتفعة ، هي في العادة أنفس جزء فيه وتفصل قرباته . ويشمل الجامع الأصلي ، ساحات فسيحة مكشوفة ، محاطة بعمد فاخرة .

(١) تم انشاء جامع السلطان برقوق سنة ١٤٠٠ م (المترجم)

وفي الوسط ، فضاء واسع مربع الشكل مرصوف بالرخام ، يحيط به جدران أو عمد عالية مزينة . والسقف العالي الوحيد ، هو قبة السماء المطلقة . وتقام الصلاة في هذه الساحة الداخلية وتحت العمد . ما أجمل هذه البقعة لعبادة الله ! إنها في الحقيقة لأشد مهابة وجلالاً من كثير من الكنائس القوطية حيث تؤدى العبادة في ظلام حالك . فهنا تبدو قبة السماء الرائعة نفسها بزرقتها الدائمة الطاهرة كأنها قبة هائلة مستقرة على تلك الجدران المرتفعة المبنية من الحجر المنحوت وفي وسط ذلك المربع المكشوف السالف الذكر ، نافورة مشيدة من رخام ويحاط بالحوض بعض أشجار النخل . هذا الحوض يشرب منه المصلون ويتوضأون . والحصر المصنوعة من سعف النخل مفروشة تحت صف الأعمدة . وهي في الغالب ستة صفوف أو سبعة صفوف من الرخام النفيس . وعلى هذا الجانب من البناء المتجه نحو مكة ، يوجد المحراب داخل الحائط وهو بناء نفيس كقدس الأقداس . وكل مسلم يخلع نعليه عند دخول المسجد . ولما كنا لا نستطيع خلع نعالنا بالرغم من رغبتنا في اتباع هذه العادة ، فقد كان ذلك مثاراً للاستغراب ، لا سيما في المساجد التي يكثر التردد إليها . وقد نجونا غير مرة من التعدي علينا بفضل همة القواس .

كان جامع المؤيد أقرب جامع لفندقنا على الجهة المقابلة للشارع المغلق [1] إن مدخله عظيم يتبعه كهفاً هائلاً مطعماً ذات مئات من الكرات الصغيرة في السقيفة الضخمة التي يبلغ ارتفاعها ستين قدماً .

وهناك ثريا ضخمة من برنز على شكل سفينة معلقة من القبة العظيمة بسلسلتين . أما السلسلة الثالثة فمكسورة والبيام معشش فيها . والقبة مغطاة في الأصل بخشب مخروط دقيق لا تزال بعض قطعه باقية . وتدل آثارها على أنها كانت مموهة بالذهب . أما الساحة المكشوفة ونافورتها التي في الوسط ، فإنهما في غاية الجمال . وقد رصفت الأرض بالرخام . ولم تطؤها أقدام الناس بأحذيتهم الخشنة فبقيت حافظة لدمائها حتى لقد اضطررنا الى لبس الإخفاف على أحذيتنا الأوربية .

إن جامع طولون متهدم الآن . وهو بناء كبير وقد خلف في نفوسنا أثراً عظيماً .

---

(١) شارع الحبية والمروحية وهو معروف الى (الآن بالمقيم)

وأعمدته التي تحيط بالساحة الفسيحة المكشوفة بالوسط يبلغ ارتفاعها أربعين قدماً . ترتكز على عقود مدببة جميلة التناسب . وقد تهدمت الأجزاء الحديثة البناء في عدة جهات ، فظهر البناء الأصلي الفاخر بجلاء ولا تزال بعض الأجزاء الخشبية المموّهة بالذهب التي تكسو الجدران حافظة لشكلها مع أن الجامع مبني في القرن التاسع . ويوجد قليل من الألواح محفورة في الجدران ، ذات نقوش كوفية بالقرب من المدخل الأصلي .

ثم اننا ألفينا في طريقنا جامعاً ثالثاً ، هو الجامع المعروف بالأزهر الذي يضم بقدميته وداخل سياجه ، ساحة من الأرض في غاية السعة ، بها أبنية منفصلة : بيت الفقراء ومأوى الحجاج ومكتبة وكلية شهيرة لتلقي العلم والقاء المحاضرات بواسطة الأساتذة ، وحجر للاستحمام ، وفيها يؤدي الحلاّق عمله . كل هذه الأقسام متصلة بذلك البناء العظيم ذي الأعمدة الكثيرة . وكان بالداخل جمهور من المؤمنين : بعضهم جالس بانحناء على الأرض يتلو القرآن وقد أخذ يهز الجزء العلوي من جسمه الى أعلى والى أسفل وهو يقرأ والبعض الآخر يشيعنا بالهمهمة والطقطقة ويشير الى أقدامنا كي نخلع أحذيتنا الكريهة . وفي هذه الأثناء ، دافع عنا قواصنا من الاعتداء باستعمال السوط في كل جهة . وكان خدام الجامع بجلابيبهم السوداء الطويلة وقصاتهم الصفراء الداخلية يصوّبون بعض الضربات لحمايتنا .

في اليوم الرابع (١١ نوفمبر) زرنا أعظم جامع وهو جامع السلطان حسن القائم في مكان فسيح . وكان في ذلك الوقت أحد الحواة يقوم بألعاب مدهشة تخلب عقول المتفرجين الكثيرين من مختلف الأعمار والطبقات ، الملتفين حوله . وكان أهم ما شاهدناه من أعمال الشعوذة وخفة اليد ، هو ضرب أحد النظارة بسوط خفيف ضرباً شديداً حول رأسه العاري . وكان هذا الرجل المهرّج ، طويل القامة ، هزيل الجسم ، أسمر اللون ، وهذه لعبة خطرة . وكان هذا الرجل العاري الرأس يلوي نفسه بمهارة ليفادي كل ضربة ليّنا ملائماً بحيث أن السوط لم يمسه . هذا والمتفرجون يبدون سرورهم واعجابهم بالاهتزاز ذات اليمين وذات الشمال ويجلسون في المقاهي أو على الأقل في أماكن بيع القهوة التي تشمل صناديق صغيرة كبيوت الحجاج ، مصنوعة من سعف النخل المجدول حيث يجلس فيها الزوار لشرب القهوة من فناجين صغيرة ويدخنون الشلابيق . ثم يوجد هناك أيضاً

« الشربات »[1] موضوعاً على إحدى هذه المنصات ، أي الشراب من أي نوع ، كشراب التوت أو المشمش أو البرقوق ، ممزوجاً بالماء . ولا شيء يضارع عندهم شراب البنفسج من بين هذه الأشربة . أما أنا فلا أميل الى الشراب الجزارى اللون لأني أرتاب فيه .

يشغل الجامع العظيم جانباً كاملاً من الساحة ، وهو كأغلب الجوامع ، ملون بخطوط حمراء وبيضاء (لا أثر لهذه الخطوط الآن) غير ان لون الجدران هذا لايناسب مطلقاً جمال زخارف النوافذ . فلا بد أن ذلك قد بدأ في عهد انحطاط الفنون الجميلة في هذه الايام الأخيرة لذلك صارت الجدران عديمة الصلة بالبناء الأصلي . ويروج البناء من البرنز المصب منتشر على الشرفات والزخارف المميزة التي لا تحصى للشكل الملتف غير المنتظم الذي يسهل تتبعه .

والسقيفة الداخلية أيضاً بأقواسها المرتفعة والأبواب عند المدخل ، مزينة بكثير من التجويفات الصغيرة الدقيقة . الصنع ، المشابهة لرواشح المغاور الرائعة (ستالاكتيت) التي لا يمل الانسان فحصها أبداً . ان ارتفاع الجدران مرصود قدماً الى السقف . وهي كذلك علوة من هذه الرواشح المدلاة من هذه التجويفات مع أن صفاً منها يؤلف كرنيشاً تحتها ويؤدي المدخل الأصلي الى ضريح السلطان حسن وهو قبة عظيمة شاهقة . وأعلاها مزين بتلك النقوش المنحوتة الغريبة التي لا يسعني إلا أن أشبهها بالتجويفات المغطاة بالرواشح ، وعليها آثار كثيرة من التذهيب . والنوافذ نصف المكسورة هي من أبدع أنواع النقوش العربية ومحلاة بأنواع الزجاج اللامع ، المختلف الألوان غير أنها مرتفعة جداً ؛ فلا ينفذ منها إلا أشعة ضئيلة إلى الأسفل . والأرض مرصوفة بالموزايكو البديع المكون من البرفيري وحجر الدم والرخام . وفي الوسط ، مقابل شرق الجدار الجانبي للبناء ، حجر الضريح ، وهو حجر كبير بسيط مختفٍ وراء شباك حديدي مزين بأنواع النقوش ، بعضها من حديد وبعضها من خشب قديم وعليه آثار التذهيب القديم . وعلى حجر الضريح ، القرآن العظيم مخطوط بحروف حمراء وحروف ذهبية ؛ قيل أنه مكتوب بخط ابن الحسن . وجميع ذلك موضوع في نفس البقعة عند أول بناء الجامع منذ خمسمائة عام تقريباً . وقد انقضى جيل بعد جيل على تشييد ذلك الجامع العجيب الذي أنفقت عليه مبالغ طائلة إلا أنه لم يأت أحد

(١) كلمة تركية تعني شراب خاصة الاستعمال في مصر من العهد التركي (المترجم)

يتقن الفن ويملك من المال ما يستطيع به اصلاح ذلك البناء من التلف على مرّ الأيام . غير أن المهابة الدينية حفظته من أن يصاب بضرر أو أن تمس يد الانتقام هذه المزارات الأثرية . ثم ان اعتدال المناخ كان من العوامل التي حفظت النقوش على الحجر والحديد ، ولو كان هذا الجامع في جو أقل لطفاً كما هو الحال عندنا ، لحوّلته التقلبات الجوية إلى ركام من الأنقاض والخرائب .

وكم من مرة كنت أتخيل « ألف ليلة وليلة » عند ما كنت أخطو في هذه القاعات المرتفعة العجيبة ، المهيبة ببساطتها ، الساكنة والهادئة في عظمتها ، التي مع مضي الأجيال العديدة لم تطأها قدم . وكثيراً ما كنت أتذكر قمرا « أبا الحسن » صانع الحبال وعلي بابا الكفيف البصر » . وكنت أرى عند ما أسير في الشوارع ، الصناع المجدين جالسين في حوانيتهم الصغيرة وهي عبارة عن مصاطب مجوّفة داخل الجدران ، تتجه فتحاتها نحو الشوارع فتؤلف باباً ونافذة في آن واحد . والجزء الأمامي من كل جانب ، مصنوع من الخشب ، يجلس عليه المار ليبتاع محلاً و يتمتع بما فيه من التسويف . ثم ترى في الغالب المالك قاعداً القرفصاء مستريحاً بسترته الحريرية النظيفة ، وعمامته البيضاء . أو تراه بمطرقته فتسمع صوتها في الهواء أو يدخن بنرجيلته كدأب كل تاجر في السوق .

في نفس اليوم الذي ألقينا فيه نظرة عامة على جميع المساجد المعظمة تقريباً . تشرفنا بالمثول بين يدي الباشا . ففي الساعة العاشرة ... ، بعثت مركبة فخمة تتلألأ بالذهب لتقلنا الى القصر . وجرى أمامنا عبدان وأحاط بالمركبة فرسان بملابس عسكرية وسارت سريعاً مجتازة شوارع المدينة الملتوية الضيقة .

لما وصلنا القصر ، بادرنا بالنزول في الحال ورافقنا رئيس التشريفات الى الدرج . فدخلنا بهواً كبيراً إلا أنه ليس فخماً إذ لا يحتوي إلا على أرائك حمراء . وفي احدى أنحاء الحجرة شمعدانان ارتفاعهما ستة أقدام وبينهما شمعة ، أضيئت عند دخول الأمير . وكان مترجم الباشا الذي يدعى خسرو بك رجلاً قصيراً ، بدين ، ذا عينين مستديرتين نافذتين . فقدمنا إلى الباشا ، فرتبنا بلا صعوبة على مقاعد عالية وكانت مراتبنا طائفاً مكدراً . وقدم قائد القوات للأمير أولاً ، غليوناً طويلاً مرصعاً بالأحجار الكريمة الثمينة . ثم قدم لكل

منا غلوناً مثله (وصواني) فضية عليها طاس الشبك فدخنت بكل وقار وكنت في الوقت نفسه أجهد كل أعصابي كي أتابع ترجمة الحديث فلم يكن ذلك أمراً هيناً إذ كان مركزي في الجلوس بعيداً . ثم قدّمت الينا القهوة في فناجين صغيرة . والقهوة كانت حالكة السواد وساخنة جداً والعادة تقضي بضرورة شرب الفنجان دفعة واحدة [١] فلم أستطع ذلك بل أعطيت الفنجان للضابط الذي كان في الانتظار بعد أن تناولت جرعة واحدة فقط . فتناول الفنجان وغطاه بيديه كما لو كان يحاول أن يمسك حشرة فيها [٢]

في يوم ١٣ اكتوبر ، تسلقنا أهرامات الجيزة . وبهذه المناسبة أقول ان جهة وضيعة كهذه ، واقعة على مسافة بعيدة من الاهرامات ، لا ينبغي أن تسمى باسمها . وقد زوّدنا الباشا بالخيول القوية الكريمة ، فعدونا الى أن وصلنا النيل ثم تقدمنا الى الجيزة حيث بدأنا بزيارة أفران التفريخ . هنالك غرفتان منخفضتان مبنيتان بالطين ، ترتفعان إلى جدران المساكن . والفتحات على ارتفاع قدم واحد من الأرض ويبلغ ارتفاع قطرها قدمين وهناك ست منها على كل جانب من السكن ، تملئة تراباً ورماداً على ارتفاع نصف قدم تقريباً وبأسفلها أفران لتسخين البيض من ٥٠٠ إلى ٦٠٠ بيضة مصرورة ويزحف رجل يومياً فيقلبها بكل عناية . ودرجة حرارة الغرفة العادية ٥ — ٣١ ترمومتراً (١٠٣ فهرنهيت) . وبعد مضي أحد عشر يوماً يفقس البيض لكن لايفرخ إلا ثلث البيض أو أقل من الثلث . وتجري عملية التفريخ في خلال ثلاثة أشهر أو أربعة على الاكثر من السنة ابتداء من شهر يناير إلى ابريل . وهذا راجع على الأرجح إلى صعوبة الحصول على غذاء للفراريج [٣]

كان طريقنا من الجيزة بين أشجار النخل البهيجة وكان محصولها قد جنى تواً . ثم ان مساكن الفلاحين العادية تحت أشجار النخل وهم لا يتخذون لانفسهم الاكواخ المبنية بالطين إلا عند الضرورة والشدة ويتحوّل أطفالهم حول المستنقعات وبقايا الفيضان طول النهار وهم يحرثون الأرض التي تحت النخل بعمرات في غاية البساطة ، ومع ذلك فان الحقول حسنة

---

(١) لا تعتبر عادة كهذه في شرب القهوة في مصر (المترجم)

(٢) لم يصف المؤلف محمد علي أثناء هذه المقابلة ولا ما دار بينه وبين الامير في حديث واتما تعمد بهذه الفراغ (المترجم)

(٣) لا وجود لهذه الافران في الجيزة الآن (المترجم)

الزراعة كما يبدو لنا . لقد كان الجزء الأعظم من السهول لا يزال مغموراً بالماء ولذلك لم نستطع الاقتراب من الاهرامات إلا بعد أن درنا دورة عظيمة على طول جسر ضيق . وأخيراً بلغنا الصحراء ، حيث اجتزنا السهل على ظهور الخيول التي أرسلها لنا الباشا . فعدونا بأقصى سرعة نحو الاهرامات . وأغلب سكان القرى المجاورة من البدو ، فاندفعوا لاستقبالنا وهم يصيحون صيحات عالية . ورأيت من بينهم زنجيًا من أهالي غربي أفريقيا ، غليظ الشفتين أفطس الأنف . فاختار كل منا رجالاً أدلاء منهم أو هم الذين اختاروهم . وعلى ذلك تقدمنا نحو الاهرامات

وشاهدنا أولاً أبا الهول الضخم الظريف . ومما يؤسف له ، ان رمل الصحراء الجيري يهدد على الدوام بدفنه . وان الصخرة الكلسية التي نُحت منها ، رقيقة وهشة التفتت حتى أن أنفه قد تلاشى وتآكل صدره وكثرت فيه الثقوب .

ان الهرم الذي بدأنا بزيارته هو الهرم الأكبر لخوفو ، وعلى جداره الداخلي بالقرب من أعلى مدخل حجرة الملك : الكتابة الهيروغليفية التي حفرها الأستاذ ليبسس . ونزلنا الممر الأول الذي يبلغ طول مدخله عُشر ارتفاع الهرم . وهنا ينتهي انتظام الدرج الخارجي الحجري . أما الحجارة فوق الفتحة ، فهي ضخمة أو هي كتل على شكل إسفين ، كل واحدة منها تقابل الأخرى . وقد نزلنا ومعنا عشرون شمعة ويساعد كل منا رجل . وتجشمنا مشقة في طرد بقية الجماعة . لم يتم ذلك الا بعد جلبة وضجيج ومع هذا حاول رجل أسود زائد عن الحاجة أن يندس وسطنا . وكان نزولنا الممر المنحدر بالانزلاق لا بالمشي وقد اضطررنا أن نحني أنفسنا . وقد ساعدنا الأدلاء بقدر طاقتهم وحرصوا كل الحرص على منعنا من السقوط حتى وصلنا الى حجرة الملك ، وهي حجرة فسيحة مظلمة لا ينفذ منها أي شعاع من النور . ومكونة من كتل من حجر الجرانيت وليس فيها غير تابوت من الجرانيت بلا صقل . ثم توجد حجرة أخرى تسمى حجرة الملكة ، بلغناها بالمشقة نفسها . وليس بها الا الوطاويط . فزحف أحد خدامنا الى أحد الممرات الهوائية التي لا تتجاوز أكثر من قدم مربع ، لكي يمسك بعضها . فساعده الحظ إذ أمسك قليلاً منها . الوطواط ذو ذنب طويل وأذنين ملتفتيان فوق الأنف . وقد كان ارتقاؤنا عند عودتنا وتسلقنا الممر الخارجي

الضيق ، أشد سروراً من نزولنا . وقد سررنا كثيراً لما تم لنا ذلك حيث لاح لنا ضوء النهار مرة أخرى . وبعد أن استرحنا هنيهة ، صعدنا سريعاً على جزء متهدم في الهرم الى القمة وهي ساحة متسعة ، مساحتها ثلاثون قدماً مربعاً . غير أننا وجدنا الحرارة بالغة أشدها . فاكتفينا ونحن على القمة بافراغ قارورة من الشمبانيا وشربناها في صحة مليكنا .

وقد تطوع أحد مرشدينا بالقيام بعمل باهر لا بنزول الهرم الاكبر الذي تسلقناه في أكثر من ربع ساعة ، بل بتسلق الهرم الثاني الذي لا يزال مغطى من قرب قمته بغلاف بحيث لا يستطيع أي أوربي أن يصعده . وقبل انقضاء خمس دقائق ، سمعنا صوته وهو يناديننا من قمة الهرم الثاني . ثم بعد عدة دقائق ، كان معنا على قمة الهرم الاول من غير أن يلهث . يبلغ ارتفاع هذين الهرمين نحو ٤٥٠ قدماً تقريباً . أما ارتفاع الهرم الثالث الذي يقع على مسافة قليلة منهما ، فهو أقل بكثير . وبعد أن مكثنا مدة على القمة ، نزلنا الى السهل مجتازين وجه ذلك العمل العظيم . هذا الأثر الذي بقي طول هذه القرون الماضية سراً غامضاً . وكانت خيولنا واقفة في انتظارنا . فعزمنا أن نسلك طريقاً آخر . وما لبثنا أن وقفنا أمام أخدود حفر لري من النيل الذي يعبر الطريق . فخطونا ووصلنا الحسن الحظ سالمين الى الجهة المقابلة ، مع أن الماء بلغ حتى سروجنا . وكانت الخيل تجفل من الكلاب التي كانت تسبح بالقرب منا . ثم واصلنا سيرنا مبتلين تماماً . وقد شاهدنا كثيراً من أسراب الطيور وأنواعاً شتى من طيور الصيد ، عدا زمج الماء وأبي قردان والحداء ، مما حفزنا على الاقبال على مسرات الرياضة . ومع هذا لم نصد الا بومة بيضاء . ثم عبرنا خرائب قنطرة جميلة من عهد ملوك العرب القدماء . وعند المساء ألفينا أنفسنا عند الجيزة بعد أن اجتزنا حقول الذرة الناضرة الخضراء ، وبعدئذ وصلنا القاهرة

في يوم ١٥ اكتوبر ، في أشد حرارة الشمس الخانقة ، رحلنا الى سقارة ، فعبرنا النيل عند مصر القديمة . ومن ثمّ سرنا على الشاطىء الغربي لانهر لمسافة خمسة فراسخ ، مارين بأشجار النخيل . وشاهدنا في كل مكان الأهالي المسرورين الشباع وان كانوا في غاية القذارة . وكان بعضهم يشتغل باعداد النيلة وهم يغنون أثناء العمل في أوعية من الفخار وأخيراً وصلنا « ميت رهينة » بجوار منفيس القديمة التي تمتاز من سائر السهل بكثرة أكوام

الخرائب . وهي أشبه بالجبل في تكوينها من أجزاء المباني القديمة . هنالك لا نرى عموداً ولا قطعة من الرخام إلا أشجار النخيل . وقد نصب بعض البدو المتجولين خيامهم قريباً من تلك الجهة المقدمة . فدعونا للدخول ومشاركتهم في شرب القهوة . وبعد أن لبثنا معهم برهة ، سرنا على طول الجسر كما كنا إلى أن وصلنا الى غابة المطاف في مدة ساعتين ، وغطسنا في آخر بركة من الفيضان ، فانتعشنا وشحذنا شهوتنا للإفطار الذي تناولناه على قاعدة أكبر الاهرامات ، وهو سهل الصعود ومبني على نسق هرم خوفو ، غير أنه أقل ارتفاعاً منه (وإن كان يبلغ نحو ثلاثمائة قدم) وأشد تخرباً .

وبعد أن اجتزنا روابي الانقاض العالية المتجمعة من الاهرامات المتبددة والتي لا يزال جزء منها عاطلاً بالجدران التي يسهل تتبعها بحيث انها ترى كأنها ساحات كنائس بالضبط نزلنا الى الحجرات الأرضية للمقابر القديمة . وكان مدخل واحدة من التي زرناها بين كتل الصخر مسدوداً برمل بعرقه . وبعد أن هبطنا عشرين قدماً ، دخلنا كهفاً مظلماً ، في ساحته الخلفية بهو جميل متسع ، مقام على أعمدة . وجميع جدرانه مزينة بلوحات هيروغليفية بديعة محفورة في الحجر الجيري الصلب . وفي السقوف آثار نقوش ملونة لا تزال حافظة رونقها وبهاءها . إلا أن عمي الفن دمروها وسطوا عليها . وفي إحدى الحجرات العميقة بئر ، فتدلى إليها الكونت (- ن) بحبل . لكنه بعد أن بلغ ٤٠ قدماً ، عند نهاية الحبل ، لم يستطع أن يبصر القاع .

تقع مقابر موميات الحيوانات (عجول ابيس والثيران والخراف والأفاعي الخ) في الجهة المجاورة ، بالقرب من قرية أبي صير ، لكننا لم نهتد اليها إلا بعد بحث شاق . ثم كان لا بد لنا من حبل طويل للنزول به الى الدهليز المفتوح إلى النصف . فتدليت ، ولما صعدت الى أعلى ولم أكن قد رأيت غير شيء قليل أو لم أر شيئاً ، زلقت يداي وانفلت الحبل الذي كنت أحاول الصعود به ، فسقطت الى القاع العميق بعد أن أشرفت على بلوغ القمة . وأخيراً حاولت الصعود بيدي المسلوختين سلخاً فظيعاً . ثم ركبت حماراً بكل مشقة حتى وصلت النيل . ومن حسن الحظ أن وصلنا الى المنزل بطريقه ولولا ذلك لما استطعت إمساك اللجام أبداً .

وفي منتصف الليل ، وجدنا أنفسنا واقفين أمام أبواب القاهرة . وقد حدث حادث

سعيد، لولاه لما تمكنا من دخول المدينة مع أننا كنا نجهل كلمة السر.

بعد ذلك، رحلنا الى عين شمس، التي هي أون القديمة، مدينة الفلاسفة. بالقرب من المطرية الحديثة، فلم نجد فيها شيئاً يستحق الذكر، غير سطح مرتفع به صلة منعزلة وخرائب كثيرة. وقد كانت عودتنا سارّة حيث مررنا تحت ظلال أشجار النبخ بجانب أخدود من الماء، متفرع من النيل. كانت الحقول ملأى بأشجار البامية والنيلة. وعند حدود قرية صغيرة محاطة بحقول شجر الخروع، دخلنا حديقة بوسطها، مشتل، يبرز منها فوق الارض رأس مسلة هائلة، عششت على كتاباتها الهيروغليفية الزنابير. هذا وتحيط بكتلة الجرانيت، أشجار المشمش والخوخ. ومن ذا الذي يعلم منظر المسلة داخل عمق يتراوح بين خمسين أو ستين قدماً تحت سطح الأرض الحالي وما هي الحروف المكتوبة عليها؟

قد تعرفت إثناء إقامتي في القاهرة بعدة شخصيات، من أعظمهم، طبيب الباشا وهو (كلوت بك) قد تعرّفت به منذ أن زرناه لأول مرة. وليس في منزله شيء يمتاز غير النعام والغزلان التي تجري في ساحته التي شاهدنا فيها أيضاً أسداً صغيراً أرسله إليه الأستاذ لبسيوس [1] من برلين تشتمل مجموعة الآثار المصرية التي عند كلوت بك على كثير من النفائس. إنه رجل حر الفكر وله آراء كثيرة مستقلة بصفته طبيباً وهو يجيد التعبير عن نفسه ويشرف كرسي التدريس لو أنه كان متمسّكاً في العلم كطلاقة لسانه في الكلام [2] وقد نال شرفاً عظيماً بسبب العمليات التي أجراها في قرح الجذام المنتشرة في الوجه القبلي وهي ليست نادرة في القاهرة. ثم انه صنّف رسالة في طريقة اجراء العملية، كتب مقدمتها الدكتور برنر وهو طبيب له تجارب عظيمة. وكان من بين مرضاه الذين عهد إليه بمعالجته الدكتور هليذهوس وقد شاهدته يجري عمليات ناجحة في اعوجاج القدم في نفس اليوم

---

(١) هو كارل ريتشارد لبسيوس (١٨١٠ — ١٨٨٤) عالم آلماني متضلع في علم الآثار المصرية وفقه اللغة. كان رئيساً لبعثة فردريك غليوم الرابع الى مصر (١٨٤٢ — ١٨٤٥) واكتشف وادي النيل في السودان (المترجم)

(٢) هو أنطوان بارتلمي كلوت ويعرف بكلوت بك ولد بمدينة جرينوبل بفرنسا في ٧ نوفمبر سنة ١٧٩٣ ومات بمدينة مرسيليا في ٢٨ أغسطس سنة ١٨٦٨ بالغاً من العمر ٧٥ عاماً وكان طبيباً للمرحوم محمد علي باشا الكبير. وهو الذي أسس مستشفى ومدرسة الطب بأبي زعبل (المترجم)

الذي تحدد لتناولنا الطعام عند الباشا . أسرعت وعدت الى الفندق في حوالي الساعة الثانية والنصف لكي شاهدت ما أذهلني إذ وجدت مركبة الباشا التي أرسلت لنا قد غادرت المدخل . فيا للأسف آكم كنت أريد أن أحظى برؤية الباشا في الرلينة اذ كان من المحال أن تتاح لي فرصة أخرى لأن رحيلنا من مصر كان قد أزف .

في ١٧ اكتوبر سافر الكونت ج — الى السويس لاعداد الترتيبات اللازمة مع قبطان الباخرة « هندوستان » لرحلتنا . فرافقناه عندما سار الى باب القاهرة في ساعة متأخرة من الليل ثم فارقناه عند مضرب خيام فرسان الحرس في الصحراء وتجولنا جولة سريعة في ضواحي العاصمة بقصد تكوين فكرة عامة عنها وزيارة حديقة الباشا بشبرا وقد استغرقت هذه الجولة الأيام الباقية لنا في القاهرة

في مساء ١٩ اكتوبر بعد أن عدنا من رحلتنا اليومية عندما كنا نتناول الشاي في غرفة الفندق ، سمعنا عويلاً مؤلماً ، ممزوجاً بالعنات والسباب باللغة الفرنسية تحت نوافذنا مباشرة وشاهدنا رجلاً علابس بيض وبلا حذاء ، يجري هنا وهناك أمام الساقية مشيراً اشارات عنيفة وهو في حالة قنوط مخيف ، فاذا به صاحب الفندق ، مسيو كولومب وقد التف الناس حوله يسألونه الخبر فخفر بعض الخير ان العقلاء بأيديهم المصابيح لانارة أعماق الحفر المخيفة وعجلات الساقية القديمة . وكان عمق سطح الماء عشرة أقدام تحت مستوى الأرض . وتحت ذلك أيضاً طين وماء لزج على عمق ١٥ قدماً بحيث اذا دنا أي انسان من حافة الحفرة ، سقط فيها ومات ثم لا يقدر أحد ان ينقذه

كان نزول هذه الحفرة في غاية الخطورة إذ لا بد من انقضاء زمن طويل حتى يجرؤ أي انسان على النزول . وبعد مضي نصف ساعة في محاولات كثيرة فاشلة ، تمكن بعض الحاضرين من النزول لاستخراج جثة شاب ، هو الأخ الأصغر لمسيو كولومب ، صاحب الفندق . وحالما عثروا عليه وأخرجوه ، وضعوه على الفراش . خلعنا ثيابه فاذا به شيء من الحرارة . وكان الدكتور فليدموس موجوداً معنا لحسن الحظ فساعدنا في محاولة إعادة حرارته . ثم حضر أيضاً كلوت بك بعد ان أرسلت من يستدعيه مرتين . وأخذنا نعالج الشاب طول الليل وجلسنا الى جانب سرير الميت إلى الساعة الثانية صباحاً دون أن نتمكن من تدليكه وتدفئته

وأخيراً أيقنا أن كل مجهود إنساني لاعادة حياته كان محالاً وأن معاونتنا كانت متأخرة . فأنشبت المنية فيه أظفارها . فما أشد هول تلك الليلة ! وفي الليلة التالية قسها شيعت الجنازة ببساطة أمام باب اخوان كرلومب

قد كانت أمتعتنا أرسلت قبلنا إلى السويس في يوم ١٨ اكتوبر . وكنا قد تمكنا بفضل بعض الموظفين من الحصول على أماكن لرحلتنا في السفينة بالرغم من أن القبطان قد رفض في بادىء الأمر أن يقبل ركاباً يزيدون عن العدد المطلوب وقد بلغنا ونحن في الاسكندرية أن كل سرير قد حجز قبل ابحار السفينة من لندن فتوقعنا الانتظار في بقاي شهراً الى أن تبحر إلى جزيرة سيلان في يوم ٢٠ اكتوبر

ولما أسدل الظلام أستاره حول الأزبكية ، شاهدنا هجن الباشا واقفة أمام الفندق فكان أحدها مسرجاً بسرج بديع ويمتاز برشاقته وهو الذي أعد لركوب الأمير . أما سائر الهجن فكانت ضخمة، فأسرعنا وركبنا ميممين الصحراء . إلا أن بطء سير الهجن كان غير متحمل ومملاً حتى إننا تعبنا في آخر الربع الساعة الأول من استمرار الاهتزاز الى الامام والخلف على سروج مربوطة بقيود أو سيور وكانت الركائب عالية جداً وأقدامنا مرتفعة الى الوراء حتى تمنى كل واحد منا أن تنتهي الرحلة بأسرع ما يمكن . وقد كان التعب في الحقيقة شديداً لانني لم أكن قد نمت من الليلة الماضية المرعبة ولم أذق للراحة طعماً . فكنت أنام رغماً عن الاهتزاز العنيف الذي أشبهه بلعبة قذف الثعلب في الترام . فكان نوماً متعباً وكنت مع ذلك ، لشدة أسفي ، أستيقظ في كل مرة عند صياح السائق الذي كان يخشى سقوطي من هذا الارتفاع . بهذه الطريقة سرنا اثنتي عشرة ساعة . وأخيراً لمحنا عند أول بزوغ النهار بيتاً حسن البناء وسط الصحراء ، وكان رقم ٤ وهي احدى المحطات أو الفنادق التي بنتها شركة النقل لاستراحة المسافرين الذين يعبرون برزخ السويس بمركباتهم وقد أعدت لكل مسافر على شرط أن يدفع جنيهاً انجليزياً . أما سائر النفقات فكانت غالية نسبياً . وبما إننا كنا في غاية التعب فقد بادرنا الى هذه الاستراحة وتناولنا فطوراً عظيماً واسترحنا في أسرة جيلة عدة ساعات .

— ٥ —

وحالما فترت حرارة النهار ، ركبنا مرة أخرى دوابنا الثقيلة لمواصلة سيرنا ولم تلبث أن غمرنا الليل . ثم لما لاح القمر من بين السحاب ، خضعنا لسلطان النوم وخشينا أن نتفرق . وكانت الصحراء يابسة وقاحلة . وتوجد مرتفعات بعد رقم ٤ تجري من الغرب الى الشرق . ويقال أن بها أشجاراً كثيرة معدة للصيد . إلا أن النباتات الوحيدة التي شاهدتها هي الشيح العديد الرائحة وأنواعاً شتى من الصاصول ورأيت أشكالاً غريبة طافية أمامي وأنا جالس على سرجي ، لكني لم أر ابن آوى أو الضبع أو اليربوع حتى في مسافة بعيدة في ضوء القمر .

أخيراً وصلنا ونحن في غاية التعب الى المحطة رقم ٦ في الساعة الثالثة بعد ظهر يوم ٢٢ أكتوبر . وهنا شُلب نتاجنه ونصب ثمناً للقهوة والبيض .

وبعد أن قضينا عدة ساعات مؤلمة على ظهور الهجن ، طلع علينا النهار ولاح لنا نحو الشمال في ضوء الشمس القرمزي ، شكل سلسلة جبال وظهر البحر الأحمر أمام عيوننا . ثم حيتنا الطيور المألوفة في ألمانيا فشاهدنا الكروان وأبا دساده في أغلب أنحاء الصحراء وكنا قبل ذلك تمتعنا بمشاهدة صديقنا القديم العزيز : البجع في أسراب كبيرة بين أشجار النخل بسنارة .

وقد استجمعنا ما بقي لنا من قوة إلا أن همتنا كانت قد خمدت سريعاً من شدة حرارة الشمس الساطعة التي جعلت اهتزازنا على الهجن في غاية المشقة وآلمتنا أقدامنا المتوترة حتى شعرنا بأن كل مفصل قد تصلب . وفي حوالي الساعة السابعة والنصف بعد الظهر شاهدنا السويس وهي بلدة صغيرة قذرة ، خرائب تمنوها خرائب ، تلاقي العين في كل جهة . هذا والسائح يبحث فيها عن محل يناسبه ليقيم فيه ولكن بلا جدوى .

أما ما يسمى بالفنادق هناك ، فهي أشياء بلا مسميات لأنها لا تصلح الا أن تكون أعشاشاً للدجاج . مع ذلك لما جاءت الساعة التي طالما انتظرناها كان سرورنا بالغاً عند ما بركت جمالنا وهي تئن أمام أحد هذه الفنادق الحقيرة !

ثم ما كدنا نجتمع حول مائدة الفطور حتى دخل علينا قبطان الباخرة هندوستان ليقدم لنا حجراً في الباخرة كلكتا وأحسن وسائل الراحة . لقد كانت هذه أخباراً سارة لأننا كنا قد يئسنا من الحصول على جواز لجزيرة سيلان مباشرة بعد ما بذلنا من جهود

فاشلة . وقد أنجزنا كل شيء في الحال وأُرسلت أمتعتنا الى الباخرة بمباي ووضعت تواً على ظهر الباخرة هندوستان .

وتحدد يوم ٢٥ اكتوبر لرحيلنا . وفي فترة الانتظار تجولنا في الجبال المجاورة جبال عتاقة وهي تقع غربي السويس على بعد ثلاث مراحل من السهل وترتفع قليلاً عن سطح البحر وهي مغطاة بأحجار الكلس ولونها أحمر قاتم .

الى هنا تنتهي رحلة الدكتور هوفيستر في مصر وتبدأ رحلته هو وأمير بروسيا الى سيلان فالهند ؟